نسق التجديد في الشعر الشعبي الجزائري

ديوان (حب البيضا) للشاعر عبد السلام نجيب شعبان أنموذجا

Renewal of Algerian popular poetry Diwan (Love of Beida) by the poet Abdul Salam Najib Shaaban as a model

د. طارق ثابت

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة الحاج لخضر-باتنة 01(الجزائر)

thabettarek@hotmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/08/24 **تاريخ القبول: 2019/08/31**

ملخص:

ظهور القصيدة الشعبية الحديثة كان نتاجا لثورة فكرية وثقافية، سياسية واجتماعية وحتى اقتصادية، عجّلت بما يسمّى التجديد لدى شعراء الملحون وبخاصة لدى مجموعة من الشعراء، فارتبط الشعر عندهم بالخيال و الرمز ، ممّا جعله يختلف عمّا كان عليه سابقا. والخوف من التجديد عند شعراء الشعبي هو خوف من جمهور ألف العادي والجاهز ، ومن سُلطة وضعت الشعر الشعبي في خانة عناصر الهوية ، التي تتكئ عليها، و التي تراها صوتا لا يمكن أن يكون خارج سلطتها كما قال أحد الدارسين، فما هو مفهوم التجديد في الشعر الشعبي ؟ و ما هي مظاهره ؟ وكيف تجلّت هذه المظاهر عند أحد أبرز شعراء الملحون الشاعر عبد السلام نجيب شعبان في ديوانه حب البيضا؟.

الكلمات المفتاحية: الشعر الشعبي؛ التجديد؛ الشعر الملحون؛ عبد السلام شعبان؛ حب البيضاء.

Abstract The emergence of the modern folk poem was the result of an intellectual and cultural revolution, political, social and even economic, which accelerated the so-called renewal of the poets of the people, especially among a group of poets, linked poetry to their imagination and symbol, which made it different from what it was before. The fear of regeneration among the poets of the popular is the fear of the audience

accustomed to the ordinary and ready, and from the authority put popular poetry in the field of identity elements, which lean on them, which you see a voice that can not be outside its authority, as one of the scholars, what is the concept of renewal in poetry? What are its manifestations? And how these manifestations manifested when one of the most prominent poets of the popular poet Abdul Salam Najib Shaaban in his office love Albida?.

Keywords: folk poetry; regeneration; Abdul Salam Najib Shaaban.

أولا- مقدمة عامة: الشعر الشعبي خير وسيلة تلقائية تعبّر بها الأمم عن ذاتها بكل حرية، وتجرد، ودون أي قيد، فالشعر الشعبي هو التعبير الفطري الصادق عن أحلام الأمة، وآمالها، وبؤسها، وشقائها، وهو ظلها الذي يصاحبها عبر الزمن، مهما اختلفت الأحوال والأماكن، ولهذا السبب كانت دراسة الأدب الشعبيّ بصفة عامة والشعر منه بصفة خاصة بالغة الأهمية لمن يحاول دراسة نفسية شعب من الشعوب،وهذا النوع من الأدب متداول بشكل شفاهي عبر العصور، متوارث جيلاً بعد جيل، تكمن أهمية دراسته في توطيد العلاقة بين ماضي الشعب وحاضره، وربط هذا الحاضر بتطلعات الشعب المستقبلية.

- والشعر الشعبي في أبسط مفاهيمه هو إبداع شفوي ونمط من الأنماط الثقافية الشعبية ، ظهر منذ القديم في أقطار المغرب العربي، وترتبط نشأته بدخول الهلاليين إلى إفريقيا في منتصف القرن الخامس الهجري أو ربما قبل زحف قبائل بني هلال إلى الشمال الإفريقي، وهو بحسب الدكتور عبد الله ركيبي "يطلق على كل كلام منظوم من بيئة شعبه بلهجة عامية، تضمنت نصوصه التعبير عن وجدان الشعب وأمانيه ،متوارث جيل عن جيل عن طريق المشافهة وقائله قد يكون أميا وقد يكون متعّلما بصورة أو بأخرى مثل المتلقي"[1].

- وتفضيل عبد الله ركيبي لمصطلح الشعر الملحون دون غيره من المصطلحات الأخرى التي استخدمها الباحثون مثل الشعر الشعبي أو العامي، كما يقول: "تماشيا مع ما شاع في البيئة الأدبية بالمغرب العربي التي عنيت بدراسة هذا الشعر[2]"، وبعض الدارسين مثل محمد المرزوقي يعتقدون بأن الشعر الملحون أعم من الشعر الشعبي، فالذين يطلقون على الشعر الملحون اسم الأدب الشعبي أو الشعر الشعبي إطلاق خطأ يجب تصحيحه عند علماء هذا الفن، "فالشعر الملحون...أعم من الشعر الشعبي إذ يشمل كل شعر منظوم بالعامية سواء كان معروف المؤلف أو مجهوله، وسواء روي من الكتب أو مشافهة، وسواء دخل في حياة الشعب فأصبح ملكا للشعب أو

كان من شعر الخواص،وعليه فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي، فهو من لحن يلحن في كلامه أي أنه نطق بلغة عامية غير معربة،أما وصفه بالعامي فقد ينصرف معنى هذه الكلمة إلى عامية لغته وقد ينصرف إلى نسبته للعامية .فكان وصفه بالملحون مبعدا له من هذه الاحتمالات"[3] ، وهو بهذا التعريف ينظر إلى هذا الشعر من زاوية اللغة المكسرة أو الملحونة على حسب قوله:"فاللحن هو النطق باللغة العربية الفصيحة بلهجة غير معربة، أعني مخالفة قواعد الإعراب المعروفة في العربية الفصحى"[4]. فاللحن هنا إما أن يكون من الخطأ في اللغة وعدم التقيد بمعاييرها أو من التلحين من اجل الغناء ، وسواء أكانت هذه أم تلك فإن الأصل فيه المشافهة ، حتى لو كتبه بعض الناس.

- ومن الخصائص الفنية للشعر الشعبي ميله للغناء ، بعيدا عن تمجيد القبيلة ، تبعا للطبيعة ّالتي نشأ فيها، وهذا بمفهوم الدكتور التلي بن الشيخ " لون آخر من التعبير، يختلف عن الشعر البدوي ، حيث تقل في .هذا الشعر الصورة الفنية، ويغلب عليه طابع البحث عن الألفاظ ّالتي تناسب الغناء والطرب ، وترضي حاجة مجتمع حضري لا يهتم كثيرا بالقبلية والفروسية والقيم الأخلاقية قدر اهتمامه بالمتعة والطرب والتمتع بالحياة"[5]، وتتميز أيضا القصيدة الشعبية بأن لغتها لغة شعبية بسيطة، تجمع بين اللفظ العامي، والفصيح والأجنبي، خليط من المفردات، وهي أيضا أداة فنية لها وظيفتين في القصيدة؛ فمنها يتولد الرمز والصورة والأسلوب، وهي أداة متميزة بالاستقلالية من حيث عملية التأثير والتأثر، فهي مجموعة ألفاظ حاملة لخصائص متغيرة في المعنى حسب مصدرها وقوة معانيها، فإذن لغة القصيدة الشعبية أو بالأحرى لهجة القصيدة هي ألفاظ معربة داخلها بطبيعة الحال عناصر التحريف والإدغام والتحوير مع ما تتميز به اللهجات المحلية من تشويه في النطق واللحن[6]، وهي عامية أكثر منها فصحى، وإن كانت هناك نسبة كبيرة من المفردات لها أصول من الفصحي، ونسبة قليلة من الكلمات الأجنبية، وهي مفردات دخيلة لا تتعدى المفردات الحربية والعسكرية، مع أن الأصل ّالذي يكون الكلمة واحد، أخذها الشاعر من الفرنسية.

- **ثانيا: التجديد وقضية المعنى في الشعر الشعبي:** إن التأثر بالموروث التقليدي، يبدو طبيعيًا، في بدايات أي شاعر، شغفه أدب أجداده، فنهل منه قراءة، تزيد ثرائهَ الثقافي والفني،

ولكن هناك من الشعراء سواء ممن يكتبون الفصيح أو الملحون ، أدركو بوعي الشاعر الحق ضرورة التجديد، في الشكل الفني للأدب، بما يتلائم مع الظرف التاريخي والموضوعي.

- إن التحولات التاريخية بداية مع تسعينات القرن المنصرم ومحاولة شعراء الملحون الإطلاع على كل ما هو خارجي بقصد التجديد ورسم ملامح مرحلة جديدة مختلفة، هو ما أدى إلى التأثر وبشكل كبير بكل ما هو خارج إطار المنظومة التقليدية وكان للنشر والإعلام الأثر الأكبر في تأكيد تأثير التجديد في الشكل والمضمون في الشعر الشعبي.

وفي الشعر الشعبي هناك نسقين، نسق يبقي القصيدة الشعبية في عباءتها القديمة ونسق ثان يحاول التجديد وهو يحتاج فقط إلى نخبة واعية، ودارسين قادرين، و إلى صورة إعلامية، وإلى قارئ جيد أيضا، وإلى شعراء يؤمنون بالحداثة والتجديد.

- وما يزال في أذهان الكثير من الدارسين ومن شعراء الشعر الشعبي على أن الشعر الشعبي هو موروث يجب أن يحافظ على قوالبه القديمة شكلا ومضمونا ، إن الشعر بما فيه الشعر الشعبي طبعا ، هو خلق و إبداع وتجاوز للمألوف، و كسر للعادي المتعارف عليه ، وإلا اكتفينا بما كتب الأولون، لا شك أن هناك عوامل عدة رسّخت لهذا المعتقد، وأبقت القصيدة الشعبية في جلبابها القديم مع فسيفساء قليلة لم تصنع الفارق في الإبداع، وأذكر من بين هذه العوامل أن الشعر الشعبي ظل مرتبطا بذوق العامة ، فلغته لغتها ، ورؤاه رؤاها، وإقليميته إقليميتها ، حتى أنك لا تفهم ماذا يكتب شاعر شعبي في تبسة ، و آخر في غليزان، وثالث في بسكرة ، إذا نحن أمام نصوص عدة ، كل نص منغلق على محيطه، و كل نص في يرى أن التجاوز هو هدم للذات ، وخوف من المستقبل الغامض الذي يعني غير المألوف ، وغير الطبيعي لدى الجمهور، وكأني بالشاعر لا يبحث إلا عن حضوره ووجوده، ولو كان ذلك على حساب الإبداع.

- إن القطيعة الحاصلة اليوم بين التيار الكلاسيكي والتيار التجديدي في الشعر الشعبي بحاجة إلى تحليل مواقف كل من هذين التيارين ، وهذا مهم جدا خاصة أن هذه القطيعة الحاصلة بينهما أدت إلى أن يتبنى التيار التجديدي اتجاها مغايرا في تبنيه للقصيدة الشعبية وذلك من حيث التركيز على:

-1اللغة التي تشكل القصيدة

-2الصورة الشعرية.

ويمكن أن نسمي هذا التيار الجديد في الشعر الملحون بـ(قصيدة الصورة واللغة المبتكرة)، وقد نجح كثير من شعراء الملحون الجزائريين في ذلك والمتتبع للساحة الشعرية سوف يلحظ ذلك.

- ومن الشعراء الشعبيين الذين أحدثوا تجاوزا في الشكل والمضمون الشاعر **عبد السلام نجيب شعبان**[7] والتي في قصائده تجاوز للشكل وانتقال من الصيغة الكلاسيكية للصيغة الحديثة ، وللغة الشعبية المتداولة، إذ تنهل كثيرا من اللغة العربية الفصحى، الأمر الذي ينزع عنها عباءة الإقليمية والجهة، ويصبح النص للجميع، وحتى للرؤيا التي ظل يتناسخ فيها شعراء الملحون، تلمس فيه روح اللحظة والعصر، ونصوص هذا الشاعر-على سبيل التمثيل والنمذجة فقط- هي نصوص تخلخل الموروث، تثقف النص، وتثير فيه على غرار ما عرفته القصيدة الفصيحة ، اللذة والدهشة والسؤال.

- يقول الشاعر عبد السلام شعبان في قصيدته(حبيتك يا فن)[8]:

حَبّيتَـــك يـــافن وانْـــت امْتَعّبْنـــي مـــن صُـــغْرِي نهْـــواك دَرْتَـــك مُنايـــا

هـــذي سَـــنَوات وانْـــت امْهَرّجْنِـــي وِيـــن انْـــصُد وانْقـــد نلْقـــاك احْـــذايا

يـــا فـــن الملْحُـــون عـــشقك دوّخْنـــي باغْرامَـــك تـــاهُوا النّـــاس الْغَنّايـــا

فـــي بَحْـــرَك عَـــوّام شـــاعر حقّـــاني طَوّعْتـــك وأنـــت الْعاصـــي لَهْوايـــا

- في هذه الأبيات نلاحظ، مدى اقتراب الشاعر من المفردات البسيطة المتداولة، في محاولة للتوفيق بين شكل القصيدة وهدفها، أو بين النهج والغاية. مهمة الشاعر هو المثول أمام هذه الحقيقة، حقيقة تسرب القصيدة إلى وعي المتلقي بسهولة، وولوج المتلقي إلى أعماق

القصيدة وإلاَّ فقدت هدفها، إذ إن الغاية الجمالية الفنية في القصيدة، تقترن الآن بغاية أسمى تتطلب اللغة المباشرة، والبعد عن الغموض.

- يقول في قصيدة(وينهم أهل الفن)[9]

وينهُم أهل الفن والنّاس الْحَيّين	واهْلَ الفكر اللّي انْقَدّر ماسْعاهم
واهْل العلم اللّي ماتوا مَحْقورين	عاشوا مدفونين لا من وزَّاهم
رَحَّم عنهم بالدُّعاء زِيدهُم آمين	واذْكُرهم بالخير عندك تنساهم
مرحَا باهْل الفن جملة أجمعين	في يوم الفنّان لاقُوا بعضاهم
شُعراء وْ كُتّاب وَمُوسِقِيّ	واهل الفولَكْلور حَطَّه تَلْقاهم
زِيد الرّسامين والمُصَوّرين	واهْل الْمسرح ناس كَلْمه بالْغاهم
تكْريم الفنّان دعم المبدِعين	تحيّه لَلّي اجْملهم لاقاهُم

- إن الإبداع يرفض التقليد، وكل طغيان يتمثل (بأحادية التعبير) أي القول بشكلٍ فني ثابت أو شكل سابق على العمل الفني، مفروض عليه من الخارج[10]، وأنه من غير المعقول كما يقول الدارسون أن يتمكن الشاعر من نقل تجربته الخاصة، والمميزة، من خلال شكل قاصر، فلابد "من شكل جديد يتلاءم مع المضمون الجديد"[11] وهذا الخروج من الشكل التقليدي الموروث عند عبد السلام شعبان مثلا، ليس خروجًا اعتباطيًا، يحاول أن يلاحق الأشكال الجديدة؛ وإنما هو حالة تطورية في فكرة القصيدة عند الشاعر، أدَّت به إلى الخروج من عباءة الكلاسيكية، يقول عبد السلام نجيب شعبان في قصيدة(وطني)[12]:

- وَطْنِي
- حُبُّو عَنّي كِي جارْ
- بُرْكانو ثارْ
- عشْقو رَاهُو دوَّخْني
- مَهْمَا عَنّي وَاجْفَا

- مهما عني واقْسَى
- مهما صار أُو ما صارْ
- منُّو أَنا ما نغْضَب
- هُوَّ عِزّي او نَشْتِيه
- كي نَهْمل نرْجَع إِلَيْهْ
- نَقْرَا نعْرَف ماضِيه..وَالأَسْيَاد اللّي فيه
- والأُسود اللّي اتْرَهَّب

- هذا ما جعل لغته تتطور بما يتلاءم مع الشكل الجديد، والمضمون الجديد، إذ إن اللغة هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير، هي أول شيء يصادفنا، وهي النافذة التي من خلالها نطل، ومن خلالها نتنسَّم[13] وهذه اللغة، هي مخزون ثقافي، طوَّعه الشاعر بما يتلاءم مع تجربته التي يريد لها أن تكون تجربة جديدة، فريدة، لأن الإبداع معركة داخل اللغة والموروث وبخاصة في الشعر الشعبي، ومحاولة للقفز بعيدًا، لقسر اللغة على التجدد، هذه المحاولة تستمر لدى الشاعر ولا تتوقف لكن هذا التجديد، تجديد من قلب التراث، لا يشكل حدًا فاصلاً، وقطيعة معه، وإنما هو استمرار له، في مرحلة تتطلب تجاوز شكله القديم، يقول في قصيدة (بشارة خير)[14] مثلا:

- عنْ لَوْن احْمامك سمّاوَك
- بيضاء او تاريخَك زَيْن
- رايَمْ عَطْفَك واحنانَك..
- يَمّا يا أُمّ الْخَير
- ما نُرقُد ساهَر عن جالك
- تاعب شاقي باسْبابَك
- واتْسالي فِيَ وانْسالك
- وانتِ يامَمُّو الْعين
- بالْحَفْنه سَقِّيت اتْرابَك

- إلى أن يقول:

- والَفْنا نَغْمةْ نشِيدك
- مرفوع رَاس الْجَبِين
- واعْلام زاهي متْعَلِّي
- وِئام وابْشارَةْ خير
- للصُّلح راجل متْسامح
- ميثاق والعهد امْتين
- مادَدْ يدُّو وَايْصافح
- باذَل جهدو ذا الصالح
- ماينام إلاّ الْقَلِيل
- واتهمّش عن وطْنُو
- مُدّه
- واحْسَبْها تَلْقى عشرين
- يالزّهراء جبت الْحُسين
- وانبارَكْلُو هذا المسعى
- وامْعاه
- سرنا لا رَجْعة
- تحية للْمُخلصين
- ما يبْقى دم
- ما نذْرَف دمْعَة
- خاوَة
- خاوَة
- متْعَشْرين
- أُمّا وُمّك
- أم وَحْدَه
- عُرْبان ولاّ مازيغْ[15]..

- فالتجديد في هذا النص هو حالة لتطور الموروث، هذه الحالة لا تهدم ولا تنفي، وإنما تعيد صياغة الأفكار واللغة بشكل جديد يتلاءم مع المضمون الذي ينشده الشاعر، في محاولة لخلق جماليات جديدة تجذب انتباه القارئ، فيبلغ الشاعر بالتالي غاية القصيدة وهدفها في إيصال المعنى الذي تبنى إخراجه إلى العامة.وهذا التجديد الذي أراده الشاعر لقصيدته، يشكل أولى أساسيات التطور الفني لقصيدته التي لم يرد لها أن تأخذ شكلاً نهائيًا، يوصلها إلى الجمود الشكلاني، الذي يفقدها بريقها، وألقها، وجماليتها، ويضعها، من ثمّ، في إطار المتكرر الرتيب، المنفر. وهذا هو جوهر القصيدة الجديدة[16] ، هذا وقد لجأ الشاعر إلى التعامل مع الموسيقى واللفظ والصورة.. الخ تعاملاً جديدًا، يختلف عن إطار القصيدة الكلاسيكية المعروف.

- **خاتمة ونتائج:**

- إن أكبر مشكلة تواجه شعراء الملحون الذين لم يتجددوا بالمفهوم الفني أن الشاعر منهم يكرر الصور نفسها عندما يعيد إنتاج ما كتبه متأثرا باستحواذ آليات التعاطي من خلال التراكم وإعادة إنتاجه، ومن هنا وبعد فترة من الزمن ومع زيادة الإنتاج الشعري لكل شاعر نجد انه يعيد نفسه من خلال تكرار إعادة إنتاجه للتراكم وبالتالي تأثر الشاعر بنفسه من خلال نصوصه، والمشكلة هنا هي أنه إذا كان التأثر السابق للشاعر قد جاء خارج إطار البيئة ، لذلك يصعب معه قيام الشاعر بإعادة مونتاج تراكمه الشعري مما يحدث لديه انفلاتا للوضع ليسبح في أروقة التكرار والتقليد.

ومن هنا يجب ان تأتي القطيعة مع آليات الشعر الشعبي الكلاسيكي بصوره ولغته، والذي تم تأصيله بالتقادم ، متبعا خط سير مغاير في تعاطيه مع القصيدة ، وهذا الذي لم يكسبه هوية من حيث أصالة المنهج الشعري، وذلك لغياب مبدأ التجديد، والانقطاع المتواصل.

- ومن خلال بحثنا هذا رأينا إن ما قام به الشاعر عبد السلام شعبان في ديوانه (حب البيضا) هو محاولة تجديد ومحاولة التجديد هذه لا يمكن أن نحكم عليها إن كانت خطوة نحو الحداثة في الشعر الملحون، إلا من خلال التجربة ككل ، التجربة التي تحتاج دراسات أكثر للحكم عليها، وهذه التجربة عند الشاعر عبد السلام شعبان تؤشر إلى

اشتغال جمالي يسعى إلى تحديث لغته وأدواته الشعرية، وقد كان من السباقين إلى إدخال النمط المنثور في الشعر الشعبي، وهذا ما ميزه عن غيره من شعراء الملحون الذي معظم ما كتبوه ظل أسير النظم التقليدي والقاموس الشعري القديم المرتبط بمفردات البادية. ولم يعرف أي تطور على مستوى المضامين التي ظلت تصب في الهمّ العام بعيدا عن الحالات الإنسانية الذّاتية والوجدانية العميقة.

- **هوامش البحث:**

[1] عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، 1981 ، ص364

[2] المرجع السابق، ص363

[3] محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر ،ط 1 سنة1967 ، ص51.

[4] المرجع السابق، ص52.

[5] التلي بن الشيخ ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط ، 1983، ص 395.

[6] انظر: شقرون غوتي، الأغنية الثورية بين فترتي الثورة والاستقلال، أطروحة ماجيستير، جامعة تلمسان، 2004، ص176.

[7] الشاعر شعبان عبد السلام من مواليد مدينة سقانة بولاية باتنة، اطار بدار الثقافة بباتنة، صدر له ديوان حب البيضاء، سنة2010 عن منشورات جمعية شروق الثقافية لولاية باتنة.

[8] عبد السلام نجيب شعبان، حب البيضا، منشورات جمعية شروق الثقافية، باتنة، الجزائر، ط.1، 2010، ص91.

[9] عبد السلام نجيب شعبان، ديوان حب البيضاء، ص47.

[10] خالدة سعيد، حركية الإبداع، دار العودة، بيروت،ط.2، 1984، ص 12.

[11] واصف أبو الشباب، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، بلاط، دار النهضة العربية، بيروت، 1988، ص 266.

[12] عبد السلام نجيب شعبان، ديوان حب البيضاء، ص17.

[13] عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، الطبعة الثالثة، دار العودة، دار الثقافة، بيروت. 1981. ص 173.

[14] عبد السلام نجيب شعبان، ديوان حب البيضاء، ص59.

[15] عبد السلام نجيب شعبان، ديوان حب البيضاء، ص64.

[16] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 239.